الضيف التنوخيّ والعامريّة وهجاء القبائل

إليك عزيزي القارئ الرواية الآتية كشاهدٍ على التهاجي بين القبائل القديمة، وكيف أن لا قبيلة من هذه القبائل تسلم من الهجاء، لحيث من عاداها ذمها بما هو فيها وبما ليس فيها من الصفات القبيحة، في حين أن ذلك غير جائز، ويستقبحه الكثير من الشعراء، كما ينطبق على هذا التهاجئ معنى المَثَلِ القائل: (إذا كان لك عينٌ فإنّ للناس أعينٌ 0

كما إن في هذه القصة درسٌ وعبرة وعظة لمن يتعتبر ويتعظ بما يقع لغيره، فيحفظ لسانه، ولا يقول قولاً لا يعرف من يكون المقصود به، خاصةً إن كان هذا القول قول سوءٍ، فإن (كلمة السوء مسموعة }، ويحسب حساب مثل هذا الأمرِ الذي يحصل عادةً من قبل الضيف، كما حصل لصاحب هذه القصة الآتية، في حضور المضيف شخصاً كان المضيف أم أكثر من شخص، وعلى سماعه، وهو إن الضيف عادةً يخطر بباله بيتٌ شعري، أو مثلاً يدلان على مدح، أو ذمٍ لشخصٍ لا يعرفه ذلك الضيف، فيتمثل بهذا البيت أو المثل، وهو لا يعلم إن المقصود به، مضيفه، أو حاضرٌ في مجلس مضيفه، يصبح في مأزقٍ، لا يدري كيف يتخلّص منه، ومثل هذا الموضوع يقع كثيراً، ولكن نظراً لأن فيه تجريح، إذا كان من باب الذم، فقد أعرضت عن إيراد أي قصة حديثة معهودة من هذا النوع ٠

قصة هذا الموضوع

ذكر البهلول بن العباس عن الهيثم بن عدي الطائي، عن يزيد الرقاشي، قال: كان السفاح يعجبه مسامرة الرجال، وإني سمرتُ عنده ذات ليلةٍ، فقال: يا يزيد أخبرني بأظرف ما سمعته من الأحاديث ٠ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، وإن كان في بني هاشم ؟ قال: ذلك أعجب إليّ ٠ قلت: يا أمير المؤمنين، رجل من بني تنوخ نزل بحي من بني عامر ([1]) بن صعصعة فجعل لا يحط شيئاً من متاعه إلا تمثّل بهذا البيت:

---

[1] **عامر بن صعصعة**: قبيلة عربية عدنانية ٠

سرائر عامرٍ لعمرك ما تبرأ من اللؤم ما دامت عليها جلودها[1]

فخرجت إليه جارية من الحي فحادثته وأنسته، وسألته حتى أنس بها ثم قالت: ممن متعت بك ؟ قال: رجُلٌ من بني تميم ([2])، فقالت: أتعرف الذي يقول:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سُبل المكارم ضلت[3]
ولو أن برغوثاً على ظهر قملةٍ يكر على جمعي تميمٍ لولت
ذبحنا فسمينا فتمّ ذبيحنا وما أرى ذبحت يوماً تميمٌ فسمت
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى عظام المخازي عن تميمٍ تجلّت

فقال: لا، والله ما أنا من تميم ٠ فقالت: فممن أنت ؟ قال: رجل من عجل ([4]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

أرى الناس يعطون الجزيل وإنما عطاء بني عجلٍ ثلاث واربعّ
إذا مات عجليٌّ بـأرضٍ فإنما يشقّ له منها ذراعاً وإصبعَ

قال: لا، والله ما أنا من عجل ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: رجل من بني يشكر ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا يشكريٌّ مسَّ ثوبك ثوبُهُ فلا تذكران الله حتى تطهرا

قال: لا، والله ما أنا من يشكر ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجلٌ من بني عبد القيس ([5]) قالت: أتعرف الذي يقول:

رأيتَ عبد القيس لاقت ذلا إذا أصابوا بصلاً وخلا
ومالحاً مصنعاً قد طلا باتوا يسلون النساء سلا
سل النبيط القصب المبتلا

قال: لا، والله ما أنا من عبد القيس ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من باهلة ([6]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

---

[1] **اللؤم**: خُلُقٌ ذميم، وهو ضد الكَرَم، وهو عند العرب الفصحاء بمعنى الرداء في العاميّة الحاليّة، والكَرَم عند الفصحاء بمعنى الطِيْب باللغة العاميّة حالياً ٠ ولئيم: بمعنلا رديء، وكريم: بمعنى طيّب ٠

[2] **تميم بن مرّة**: قبيلة عربية من العدنانية ٠ لغتها العربية حجّة بين لغات القبائل ٠ أنجبت أكبر شعراء الجاهلية ومنهم الأسود بن يعفور، وسلامة بن جندل، وعَديّ بن زيد، وأوس بن حَجَر،وعلقمة الفحل، وأكثم بن صيفي، ثم الفرزدق وجرير في الإسلام ٠

[3] **بطرق اللؤم**: بسّبل الرداء ٠ **أهدى من القطا**: أدل من القطا ٠ **المكارم**: جمع مَكْرَم و مَكْرَمَة، وتسمى مكارم الأخلاق، وهي كما أسلفنا بمعنى أفعال الطيب، أي الكَرَم بالفصحى ٠

[4] **عِجْل بن لُجَيم**: قبيلة عربية من بكر بن وائل ٠ كانت منازلهم من اليمامة إلى البصرة ٠

[5] **عبد القيس**: قبيلة عربية شمالية ٠ بطن من ربيعة بن مَعَدّ ٠ نزحت إلى البحرين ٠ قطنت على حدود الحيرة شرقي الجزيرة ٠ دخلت الإسلام ٦٢٨ م واشتركت في حروب الفتح ٠

[6] **باهلة**: قبيلة عربية عدنانية ٠ كانت منازلهم باليمامة ثم نزلوا البصرة ٠

إذا أزدحم الكرام على المعالي تنحى الباهلي عن الزحامِ
فلو كان الخليفة باهلياً لقصر عن مناوأة الكرامِ[1]
وعرض الباهلي وان توقى عليه مثل منديل الطعام

قال: لا، والله ما أنا من باهلة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني فزارة ([2]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

لا تأمنّ فزارياً خلوتَ به على قلوصك واكتبها باسيارِ
لا تأمنّ فزارياً على حمرٍ بعد الذي امثل أير العير في النارِ[3]
قومٌ إذا نزل الأضياف ساحتهم قالوا لأمّهم بولي على النارِ

قال: لا، والله ما أنا من فزارة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجلٌ من ثقيف ([4]) ٠ قال: أتعرف الذي يقول:

أضل الناسبون أبا ثقيفٍ فما لهم أبٌ إلا الضلالِ
فأن نسبت أو انتسبت ثقيفٌ إلى أحدٍ فذاك هو المحالِ
خنازير الحشوش فأقتلوها فأن دماءها لكم حلالِ

قال: لا، والله ما أنا من ثقيف ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني عبس ([5]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا عبسيةٌ ولدت غلاماً فبشرها بلؤمٍ مستفادِ

قال: لا، والله ما أنا من عبس ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من ثعلبة ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

وثعلبة بن قيسٍ شرّ قومٍ وألأمهم وأغدرهم بجارِ

قال : لا، والله ما أنا من ثعلبة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من غني ([6]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا غنوية ولدت غلاماً فبشرها بخياطٍ مجيدِ

---

[1] **المناوأة**: المفاخر والمعارضة، والمعاداة ٠
[2] **فَزارة**: قبيلة عربية شمالية من غطفان٠
[3] **حُمُر**: حمير جمع حمار ٠
[4] **ثقيف**: قبيلة عربية عدنانية من هوازن ٠ سكنت الطائف ٠ أسلمت واشتركت فى الفتوح ٠
[5] **عبس**: قبيلة عربية عدنانية من غطفان ٠ أخت ذبيان كانت بينهما (حرب السباق)، أو (حرب داحس والغبراء) أي بين غطفان وبين ذبيان، وداحس مهر والغبراء مهرة ٠ من شعرائها قيس بن زهير، والربيع بن زياد، وعنترة بن شداد، وعروة بن الورد ٠
[6] **غني بن أعصُر**: من قبائل الشمال ٠ إليها ينسب الشاعر طُفَيل بن عوف ٠

قال: لا، والله ما أنا من غني ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني مرّة ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا مريةٌ خطبت يداها فزوجها ولا تأمن زناها

قال: لا، والله ما أنا من بني مرّة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني ضبّة ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

لقد زرقت عيناك يا بن معكبر كما كلّ ضبيٍّ من اللؤم أزرق

قال: لا، والله ما أنا من بني ضبّة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بجيلة ([1]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

سألنا عن بجيلة حين حلّت لتخبر أين قرّ بها القرارُ ؟
فما تدري بجيلة حين تدعى أقحطانٌ أبوها أم نـزارُ ؟
فقد وقعت بجيلة بين بيـن وقد خُلعت كما خلع العِذارُ

قال: لا، والله ما أنا من بجيلة ٠ قالت: فممن أنت ويحكَ ؟ ! قال: أنا رجل من بني الأزد ([2]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا ازديةٌ ولدتْ غلاماً فبشرها بملاحٍ مجيدِ

قال: لا، والله ما أنا من الأزد ٠ قالت: فممن أنت ويلك؟ ! أما تسمي ؟ !قل الحق ٠ قال: أنا رجل من خزاعة ([3]) ٠قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا افتخرت خزاعةُ في قديمٍ وجدنا فخرها شرب الخمورِ
وباعت كعبة الرحمن جهراً بزقٍ بئسَ مفتخر الفخـورِ

قال: لا، والله ما أنا من خزاعة ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من سليم ([4]) ٠ ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

فما لسليمٍ شتت الله أمرها تنيك بأيديها وتعيا أيورها

---

[1] **بَجيلة**: من قبائل العرب الجنوبية ٠ فرع من مذحج من كهلان ٠

[2] **الأزد**: من كبريات قبائل العرب ٠ تنتسب إلى كهلان بن سبأ، من القحطانية ٠ هجروا اليمن بعد تصدُّع سدّ مأرب ٠ انقسموا إلى أزد شنوءة وأَزْد الَّراة وأَزْد عُمان، وتفرّعوا قبائل كثيرة أشهرها الأوس والخزرج ومنهما الأنصار، وخُزاعة وغَسَّان ولخم ٠

[3] **خُزاعة**: قبيلة عربية من الأزد ٠ ارتحلت إلى الشمال إثر تصدُّع سدّ مأرب ٠ كانت لهم سدانة الكعبة بمكة إلى أن انتزعها منهم قُصَيّ ٠ وقُصَيّ: من أجداد النبي، صلى الله عليه وسلّ، سيّد قُرَيش في عصره ٠ جمع قومه فى مكة وجعل داره للندوة وكانت له سَدانة الكعبة ولا تزال فى ًقِبه إلى اليوم ببنى شيبة ٠

[4] **سُلَيم بن منصور**: قبيلة عربية عدنانية بعضهم في مصر ٠ وجّههم وبني هِلال المستنصر الفاطميّ لمحاربة المُعزّ بن باديس الزيريّ فغزوا إفريقية واحتلوا وسوسة وتونس بعد معركة حيدران ٤٤٣هـ٠

قال: لا، والله ما أنا من سليم ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من لقيط ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

لعمرك ما البحار ولا الفيافي بأوسع من فقاح بني لقيطِ
لقيط شرّ من ركب المطايا وأنذل من يدب على البسيطِ
ألا لعن الإلـه بنـي لقيطٍ بقايا سبيةٍ من قـوم لـوطِ

قال: لا، والله ما أنا من بني لقيط ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من كندة ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا افتخر الكنـدي ذو البهجةِ والطرّه
فبالنسج وبالخـفِ وبالسدلِ وبالحفره
فدع كندة للنسـج فأعلى فخرها عرّه

قال: لا، والله ما أنا من كندة ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من خثعم ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

وخثعم لو صفّرتَ بها صفيراً لطارت في البلادِ مع الجرادِ

قال: لا، والله ما أنا من خثعم ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من طيئ ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

وما طيْئ إلا نبيط تجمّعت فقالت طياناً كلمةً فاستمرت
ولو أن حرقوصاً يمد جناحه على جبلي طيئ إذاً لاستظلت

قال: لا، والله ما أنا من طيئ ٠ قالت: فممن أنت ؟ !قال: أنا رجل من مزينة ([1]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

وهل مزينة إلا مـن قبيّلـةٍ لا يرتجى كرم فيها ولا دينُ

قال: لا، والله ما أنا من مزينة ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من النخع ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا النخع اللئام عدوا جميعـاً تأذّى الناس من وفر الزحـامِ
وما تسمو إلى مجدٍ كريـمٍ وما هم في الصميم من الكرامِ

قال: لا، والله ما أنا من النخع ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من أود ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

---

[1] **مزينة**: قبيلة عربية عدنانية ٠ قيل أنهم سمّيوا بذلك نسبة إلى أمّهم مزينة بنت كلب بن وبرة ٠ وبنوها ذرية عثمان بن عمرو بن أُد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان ٠ وقيل عثمان نفسه يقال له: مزينة ٠ من أشهر شعرائها زهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير ٠

إذا نزلت بأودٍ في ديارهمُ فأعلمْ بأنك منهم لستَ بالناجي
لا تركننّ إلى كهلٍ ولا حدثٍ فليسَ في القوم إلا كلّ فعاجِ

قال: لا، والله ما أنا من أود ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من لخم ([1]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا انتمى قومٍ لفخرٍ قديمهم تباعد فخر القوم من لخم أجمعا

قال: لا، والله ما أنا من لخم ٠ قالت: فممن أنت ؟ ! قال: أنا رجل من تنوخ ([2]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا تنوخ قطعت منهلاً في طلب الغرّات والثأرِ
آبت بخزيٍ من إله العلى وشهرةٍ في الأهل والجارِ

قال: لا، والله ما أنا من تنوخ ٠ قالت: فممن أنت ثكلتك أمّك ؟ ! قال: أنا رجل من حمير ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

نبئت حمير تهجوني فقلتُ لهم ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا
لأن حميرٍ قوم لا نصاب لهم كالعود بالقاع لا ماء ولا ورقُ
لا يكثرون وأن طالت حياتهم ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قال: لا، والله ما أنا من حمير ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من يحابر ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

ولو صر صرّارٌ بأرض يحابر لماتوا وأضحوا في الترابِ رميما

قال: لا، والله ما أنا من يحابر ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من قشير ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

بني قشيرٍ قتلت سيدكم فاليوم لا فديةً ولا قودَ

قال: لا، والله ما أنا من قشير ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني أُميّة ([3]) ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

---

[1] **بنو لخم**: أو **المناذرة**: من قبائل العرب ٠ أصلها من اليمن ٠ رحل بعضهم إلى شمالي جزيرة العرب وسوريا وفلسطين والعراق ٠ أسسوا دول اللخمية في الحيرة التي عاشت في حروبٍ متواصلة مع الغساسنة ٠

[2] **تنوخ**: قبيلة عربية مسيحية من الحيرة ٠ انتقلت إلى بلاد حلب، واعتنقت الإسلام على عهد المهديّ ٠ منها أمراء لبنان التنوخيون الذين عُرفوا بأمراء الغرب أو البحتريّون ٠

[3] **أُميّة بن عبد شمس**: جدّ الأمويين ٠ من أعيان قريش في مكة ٠ والأميون: سلالة الخلفاء المسلمين من بني أُميّة ٠حكموا من ٤٠ حتى ١٣٢ هـ ٠عاصمتهم دمشق ٠ أوّلهم معاوية بن صخر (أبو سفيان) بن حرب بن أُميّة ٠ وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن أُميّة ٠ هزمه العباسيون في معركة الزاب، وقتل بالقرب من بوصير(مصر) ٠ يُعرف بمروان الحمار لجرأته على الحروب ٠

وهي من أميّة بنيانها فهان على الله فقدانها
وكانت أُميّة فيما مضى جرى على الله سلطانها
فلا آل حربٍ أطاعوا الرسولَ ولم يتقِ الله مروانها

قال: لا، والله ما أنا من أُميّة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني هاشم ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

بني هاشم عودوا إلى نخيلاتكم فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم
فإن قلتم رهط النبي محمد فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

قال: لا، والله ما أنا من بني هاشم ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني همدان ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا همدان دارت يوم حربٍ رحاها فوق هامات الرجالِ
رأيتهم يحثون المطايا سراعاً هاربين من القتالِ

قال: لا، والله ما أنا من همدان ٠ قالت: فممن تكون إذا لم تكن من همدان ؟ قال: أنا رجل من قضاعة ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

لا يفخر قضاعيٌّ بأسرته فليسَ من يمنٍ محضاً ولا مضرِ
مذبذبين فلا قحطان والدهم ولا نزار فخلوهم إلى سقرِ

قال: لا، والله ما أنا من قضاعة ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من شيبان ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

شيبان قومٌ لهم عديدٌ فكلهم مقرفٌ لئيمُ
ما فيهم ماجدٌ حسيبٌ ولا نجيبٌ ولا كريمُ

قال: لا، والله ما أنا من شيبان ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من بني نمير٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

فغض الطرف أنك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فلو وضعت فقاح بني نميرٍ على خبث الحديد إذاً لذابا

قال: لا، والله ما أنا من نمير ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من تغلب ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

لا تطلبنّ خئولةً في تغلبٍ فالزنج أكرم منهم أخولا
والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك إسته وتمثّلَ الأمثالا

قال: لا، والله ما أنا من تغلب ٠ قالت: فممن أنت ؟قال: أنا رجل من مجاشع ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

تبكي المغيبة من بنات مجاشعٍ ولها إذا سمعت نهيق حمارِ[1]

قال: لا، والله ما أنا من مجاشع ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من كلب ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

فلا تقربا كلباً ولا بـاب دارهـا فما يطمع الساري يرى ضوء نارها

قال: لا، والله ما أنا من كلب ٠ قالت: فممن أنت ؟ قال: أنا رجل من تيم ٠ قالت: أتعرف الذي يقول:

تيميّةٌ مثل أنف الفيلِ مقبلهـا تهدى الرحى بيتان غير مخدومِ

قال لها: هذا مقام العائذ بك قالت: قم فأرحلْ خاسئاً مذموماً، وإذا نزلت بقومٍ فلا تنشد فيهم شعراً، حتى تعرف من هم، ولا تتعرض للمباحث عن مساوئ الناس، فلكلِّ قومٍ إساءة وإحسان، إلا رسول الله رب العالمين، ومن اختاره الله على عباده، وعصمه من عدوه، وأنت كما قال جرير للفرزدق:

وكنت إذا حللتَ بدارِ قـومٍ رحلتَ بخزيِهِ وتركتَ عارا

فقال لها: والله لا أنشد بيت شعرٍ أبداً ٠ فقال السفاح: لئن كنت علمت هذا الخبر، ونظمت فيمن ذكرت هذه الأشعار، فلقد أحسنت، وإن أنت سيد الكاذبين، وإن كانت العامرية قالتْ ذلك صدقاً فإنها لمن أحضر النساء جواباً، وأبصرهم بمثالب الناس ٠

---

[1] **المغيبة**: التي غاب زوجها ٠